الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

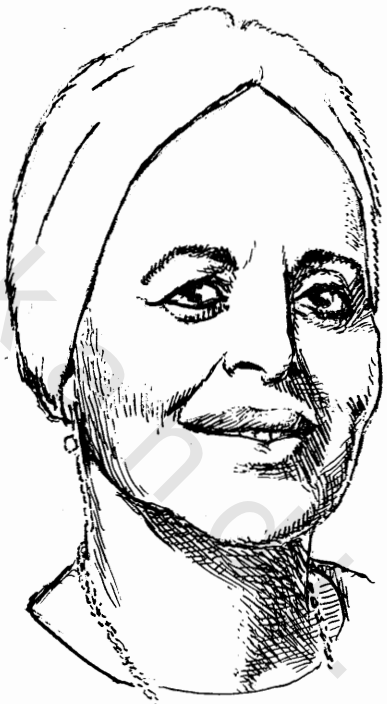

عصر الخلاص فى العودة إلى المنبع .. الدين !

تاريخ التسجيل ١٩٨٤

obeikandl.com

- أغانينا الوطنية تعبير عن شعور بالذنب !
- خوفو لم يبن الهرم الأكبر !
- شخصية مصرية بين مفترق الطرق الحضارية .
- القبة هرم .. والمئذنة مسلة .. والمسلة نخلة !
- الكتابة المسجدة والكتابة المجودة ..
- كيف ومتى نتعلم فلسفة التاريخ ؟
- عمارة العصر بين العشوائية والتقليد والتغريب ..
- بين البلدى والألافرانكا !

obeikandl.com

د . نعمات أحمد فؤاد

هى قطعة من روح مصر تسير على قدمين . . تكتب وكأنها تنقش حروف كلماتها التى تختارها بعناية ، فتصل الماضى بالحاضر والمستقبل ، وتتحدث فيأخذ حديثها بمجامع القلوب ، لدفئه المصرى وعمقه العلمى وصدقه الإنسانى . . استوعبت تراث أعظم حضارة فى العالم ، ودعتنا إلى قراءته قراءة جديدة ، ليس من أجل الماضى ، وإنما من أجل فجر جديد يشرق على حقائق الزمان والمكان . .

* * *

● نحب أن نعيش فى فكرك الذى يتسم بالتعددية فى جوانبه . . فقد بدأت أديبة ، ولكن جهودَكِ اتسعت فقرأنا لك فى الموسيقى والفنون التشكيلية ورسائل وتراجم . . غير معاركِكِ الشهيرة ومواقِفِكِ القومية والسياسية . . ولعله يجدر بنا أن نلقى الأضواء على ذلك قبل التوغل فى الشهادة ؟

ـ الحقيقة إنى أرى ذلك التعدد فى الزوايا والجوانب شيئاً طبيعياً ،

لأنى تتلمذت على قمم شامخة سواء فى الجامعة أو خارجها . . ففى الجامعة رأيت أحمد أمين وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام . . وخارج الجامعة رأيت د. طه حسين والعقاد وهيكل . . فتعلمت منهم الصبر والرغبة فى الإتقان إلى حد الكمال الممكن للبشر . . ثقافة شاملة فى ألوان المعرفة الأخرى . . لأن المعرفة يكمل بعضها البعض . . حتى لايضيع الإنسان إذا خرج من تخصصه إلى مجال آخر . . ودائماً يقاس الإنسان بما يملكه من قدرات . . لذلك فقد كان تخصصى الأصيل فى اللغة العربية واللغات الشرقية : الفارسية والتركية . . ولكنى علّمت نفسى . . بدأت أعلم نفسى بعد التخرج من الجامعة . . بل بعد الدكتوراه . . فقد اعتبرت الدكتوراه بداية لانهاية . . !

● **نبدأ فى الشهادة . . وبداية هل ترصدين هذا الحضور المصرى المكثف . . المتمثل فى عشرات الدراسات والندوات والأغنيات التى تحمل اسم مصر ، وما تقييمك لهذه الظاهرة ؟**

ـ أوافق على الحضور كندوات ودراسات . . لأنها لون من العطاء والجدية المثمرة . . أما الأغنيات فإنى أتحفظ عليها . . !

●●● أغانينا الوطنية تعبير عن عقدة ذنب !

ـ فأنا أعتقد أن هناك بعض الأغنيات الجميلة الصادقة . . ولكن يوجد كم هائل من الأغانى عبارة عن طنطنة . . ثم إنى أعتقد أن غناء الطنطنة هو وطنية البسطاء . . أما الوطنية الحقة ، فى مفهومى على الأقل ،

فهى علم بالوطن وعطاء له، وتمثل ومعايشة لآلامه وآماله . . أنا جزء من هذا الوطن . . لذا فكل ذرة تراب وورقة شجر ونسمة هواء أتمثلها وأعتز بها . . بشرط ألا يبقى هذا مجرد كلام . . فأنا يؤلمنى أن أرى السلبيات . . فقد درست تاريخ هذا الوطن واعتززت به . . لكن أن أقول تحيا مصر بِبَبْغاوية . . فهذه ليست الوطنية . . إنك تسألنى عن مفهومى لهذه الظاهرة وتفسيرى لها . . إن تقييمى الصحيح لها أنها تأنيب ضمير نحس به . . إحساس بالنقص أننا لم نعط هذا الوطن ما يستحقه من فداء وعطاء . . لذلك فنحن نغطى هذا الشعور بالذنب بأن نغنى بصوت عالٍ . . لنغطى على وخز الضمير فينا . . ! إنسان داخله مكسور فيغطى الكسر «بالجعجعة» . . فنحن بلا شك نحس بالذنب . . وأننا لانعطى لهذا الوطن ما يستحقه ، فنغطى هذا بأغان خادعة مخدوعة . . ويجب أن نلوم أنفسنا لوماً مضاعفاً لأننا أصحاب حضارة وراثية فى البناء . . فالإنسان العاجز لا يلام ، أما القادر فهو الجدير باللوم :

ولم أر فى عيـوب الناس عيبـا كنقـص القادريـن عـلى التمام

فنحن نملك الكثير، وعملنا الكثير . . وفى ظروف صعبة . . فبعض مراحل حضارتنا نمت فى ظروف صعبة للغاية ، ومع هذا أضفنا فى كل عصر . . فهل إضافة عصرنا الحالى ستكون فى الأغانى ؟ هذا كثير ! !

●●● خوفو لم يبن الهرم الأكبر !

● من دراساتك الهامة «شخصية مصر » التى أوضحت فيها العطاء

المصرى الرائد فى العلم والفن والدين . . وجيل العصر متهم بأنه لايعرف تاريخ بلده . . أولاً : هل توافقين على هذا الاتهام ؛ ثانياً : لو كان هذا الاتهام صحيحاً . . فما هو المطلوب لنضع هذا الجيل على أول الطريق الصحيح ؟

ـ إذا جاز أن هذا اتهام فهو موجه لنا نحن جيل الآباء والأمهات والمعلمين بالدرجة الأولى . . كيف ؟ لأننا لم نعلم أولادنا التاريخ الصحيح لبلدهم . . فعلى أى أساس نتهمهم أو نحاسبهم ؟ أولى بنا أن نتهم أنفسنا فى شجاعة . . أولاً . . نحن علمناهم التاريخ كتاريخ ملوك . . مثلاً نقول لهم إن خوفو بنى الهرم الأكبر . . صلاح الدين انتصر فى معركة حطين . . الخ . . أولاً خوفو لم يبن الهرم الأكبر . . خوفو وقف على الهضبة وقال أنا أريد هنا هرماً . . هكذا طلب من السلطة العليا ، وهو يملك أن يطلب هرماً . . شهادة . . أى شىء ! ليست هذه هى العبقرية . . ولكن العبقرية هى عبقرية المهندس المصرى الذى صمم . . العامل المصرى الذى نقل الأحجار وبنى الهرم . . الجيولوجى المصرى الذى مسح الأرض . . الرياضى الذى حسب الزوايا فى إتقان شديد . . هؤلاء هم الذين بنوا الهرم . . هم الشعب المصرى . .

فلو أنى أعلم هذا للولد ، كان يطلع عنده ثقة فى نفسه . . أنه هو الذى يصنع الأحداث . . وهو الذى يكتب تاريخه . . وهو المشترك فى القرار . .

ثم أقول له إن صلاح الدين انتصر فى معركة حطين . . ولا أقول له إن صلاح الدين كان فى سوريا وكان ابن عمه ملك سوريا ، وأن الصليبيين هاجموا فلا كسبوا معركة ولا حاجة . . ولكنه كسب المعركة حينما جاء إلى مصر . . معنى ذلك أن طاقات مصر كانت وراءه . . بالرجال والمال وحدود الموقع الفريد . . كل إمكانات مصر الحضارية كانت تقف وراءه فى المعركة . . أنا لا أهون من براعة القيادة ، فلابد منها فى المعركة ، لكن لابد من الجنود الأكفاء . .

فنحن نعلم أولادنا أن التاريخ من صنع أفراد . . الأفراد نحن الذين صنعناهم . . ولن يكونوا إلا بنا كشعب . . فكيف نلوم هذا الجيل . . ؟

● **الشق الثانى من السؤال هو : ما المطلوب لنضع أقدام هذا الجيل على أول الطريق الصحيح ؟**

ـ أولاً أن نكف عن أسلوب التلقين . . أسلوب «تعليب» الأولاد بدلاً من «تعليمهم» . . ! أى أن أضعهم كلهم فى علبة واحدة على اختلاف مواهبهم وقدراتهم وإمكاناتهم . . عملية تلقين مستمرة وحشو دماغ بمعلومات تفرغ على أوراق الإجابة ، وبعد ذلك ينسى الولد كل هذا لأنه لم يشترك فيه . المفروض أن أشركه معى بالحوار . . فالتعليم فى الفصل المدرسى غير التعليم فى الطبيعة الأم . . المفروض أن آخذه معى إلى النيل مرة ، والهرم مرة ، والمتاحف مرة . . والأرض والشجر . . وكل ذرة تراب أو رمل على أرضنا . . يمشى عليها وتدخل فى تكوينه . . هذا هو التعليم

الذى لايمكن أن ينساه . . ثم يأتى بعد ذلك الخلق أو الإبداع بعد أن يتكون الأطفال أقسمهم حسب هواياتهم ومواهبهم . . فهذا موهوب فى التعليم النظرى ، وهذا فى الصناعات أو الناحية العملية ، وهكذا ، . فلا أحشرهم كلهم معاً كما يحدث الآن حينما نقول فى الثانوية العامة سنأخذ بالمجموع ، فنشد كل الأسر التى تلهث إلى الدروس الخصوصية من أجل المجموع ، ثم مكتب التنسيق . . بحيث تغير نصف درجة مسار إنسان . . ثم بعد أن يتخرج من الكلية . . نأخذ خريج الهندسة مثلاً وأوظفه فى شركة مياه غازية . . وخريج الزراعة فى أعمال تجارية . . هل هذا معقول؟! إذن لماذا كان التنسيق والحشر والتعليم من البداية؟!! لابد من تغير جذرى للتعلم فى بلادنا . . لازم نفوق !

● إذن المطلوب مراجعة فلسفة التعليم بحيث يصبح تعليماً لاتعليباً؟

ـ ليس فقط الفلسفة وإنما الأسلوب أيضاً . . أسلوب التعليم وأسلوب وضع المناهج . . وأسلوب التوزيع . .

●●● الشخصية المصرية ومفترق الطرق الحضارية :

● يعنى حضرتك ذكرت كلمة أسلوب . . وأنا أود أن أوسع استخدام هذا اللفظ وأسألك : هل نحن حقاً فى حيرة أمام الاتفاق على أسلوب أو هوية محددة تقودنا فى مفترق الطرق الحضارية ؟

ـ طبعاً نحن فى حيرة شديدة كل الناس يلاحظونها . . لقد كنت أحضر مؤتمر الذاتية الحضارية ، وكنت أتحدث عن استمرارية

الشخصية المصرية واتصالها ، وشواهد إنجازاتها عبر العصور . . وإذا بأحد الحاضرين ، وهو أستاذ فرنسى يقف ويصيح بما معناه الآن تقولون : إنكم مصريون وقبل ذلك كنتم تقولون إنكم عرب ! وفعلاً شعرت بوخز شديد . . فالشاهد أنه توجد ذبذبة ، بل زلزلة موجودة ويلاحظها حتى الغرباء . . وهذا يظهر لك الارتجالية فى كل شىء . . يعنى لا توجد لدينا ثوابت . . نختلف . . ولكن يشعر كل واحد منا بمدى البلبلة التى يتعرض لها أولادنا . . فما كان أبيض بالأمس يصبح أسود اليوم . . والمفاهيم تتغير . . خلط وتخليط وعشوائية فى كل شىء . . وليس فقط الأولاد ، وإنما نحن نبلبل الكبار أيضاً عن طريق الإعلام .

● أراك قد آثرت التجاوز عن ملاحظة الأستاذ الفرنسى الذى قابلك فى المؤتمر ؟!

ـ لا . . أنا لم أتجاوزه ، ولايمكن أن أتركه بدون رد . . لكن أنا فى قرارة نفسى أعطيه بعض العذر فى ألا يفهم ما نقول . . فما التعارض فى أن نكون مصريين وعربا فى نفس الوقت ؟ إننا مصريون أصولاً . . وعرب ثقافة ولسانا . . ومسلمون ومسيحيون عقيدة . .

نحن مصريون أولاً لأن مصر قبل الأديان . . ثم جاءت الأديان . . ومن حظ مصر ومما يحسب لها أنها بعقل مفتوح وراجح وأفق واسع وثقة فى النفس وقدرة على التطور . . ناقشت الأديان ثم اعتنقتها ثم أضافت إليها . . أخذت منها وأعطتها .

●●● المد الديموقراطى ! :

● هل ترصدين فى رؤيتك اليوم هذا المد الديموقراطى الذى نحياه . . وهل ترصدين فيه نزوعاً نحو ظاهرة نقدية تجسِّم عيوب الآخرين فقط ؟

ـ لاتؤاخذنى . . أنا غير موافقة على كلمة «مد» ديموقراطى «وجزر» ديموقراطى ! إما ديموقراطية وإما لا . . من حق هذا الشعب أن يحيا حياته ويحكم نفسه بنفسه . . ويقول لا بكل صراحة ووضوح . . لكن «مد» ديموقراطى فيه نوع من المن على الشعب . . وهو لا يمن عليه أحد . . فهو مصدر السلطات . . أو هكذا يجب أن يكون . . وهو صاحب العطاء بعد الله . .

كما أنى لا أوافق على أن هناك ظاهرة نقدية تجسم العيوب هذا إرهاب . . لأن الذى سينقد سيقولون له إنك تجسم العيوب ! طيب اشمعنى النفاق أليس تجسيماً للحسنات؟!! هذا بفرض أن هناك حسنات! . . أنا أرى أن النقد نوع من المحبة . . لأنى أقرّع ابنى حينما يخطىء لأنى أحبه وأريد له الخير . . نفس الشىء مع وطنى . . حينما أرى به عيباً يجب أن أدق الأجراس . . ناقوس الخطر . . لأنى أخاف عليه . . ملهوفة عليه . . لكن إذا استمر الإنسان طول الوقت يحرق البخور فما هى النتيجة ؟ افرض أن الإنسان أجاد . . ماذا فى هذا . . المفروض أن يجيد وأن يحسن عمله ويعطى عطاءه . . لكن هل أظل طول الوقت أصفق؟ غير معقول . . لماذا نعتبر النقد تجسيماً للعيوب ولا نعتبر النفاق تبديلاً وتزويراً ؟!

● **ولكن يا دكتورة «أنت التى ذكرت اصطلاح «ظاهرة نقدية تجسم عيوب الآخرين فقط» وذلك فى كتابك «شخصية مصر » ؟**

ـ لا . . أنا لم أقصد بها هذا المعنى ! أنا كنت أقول إننا لابد أن نعرف أنفسنا . . يعنى حتى عبارتى بالنص ـ إذا أسعفتنى الذاكرة ـ تقول : «فى غير تهويل أو تهويم» لأننا من طبعنا منذ عصور الضعف أننا إما أن نبخس أنفسنا أو أن نبالغ فى تقديرها . . أنا لا أريد هذا ولا ذاك . . أنا أريد تقنينا دقيقاً لكى نستطيع تحديد طريقنا . . هذا ما قلته .

● **ولكن الديموقراطية التى نحياها الآن . . لاشك أنها واقع حى نلمسه جميعاً ولاشك أنك تلمسيه ؟**

ـ إنك تبالغ . . إننا نرجو أن نعيشها كما نتمناها وكما نراها فى البلاد الديموقراطية الحقيقية . . هذا الشعب مارس الديموقراطية منذ القرن التاسع عشر . . وكانت هناك نماذج عليا لحرية الرأى .

●●● قيم خالدة فى تاريخ مصر :

● **فى معركة التنمية التى نعيشها ، ونحن نحمل تراث سبعة آلاف عام من حضارة متصلة غير منقطعة . . فيها الإيجابيات وفيها السلبيات . . فى رؤيتك الآن . . ماذا نأخذ وماذا نترك فى مسيرتنا من تراثنا ؟**

ـ يبدو أننى سأختلف معك مرة ثانية ، واختلاف الرأى لايفسد للود قضية .

طبعاً يا دكتورة . . وليس معنى إلقائى لأى سؤال أننى أطالب ضيفى بالموافقة عليه . . بل مطلوب مساحة أوسع للاتفاق والاختلاف والجدل حتى يتبين الحق . .

ـ وهذه هى الديموقراطية ! أما ما أختلف معك فيه فهو حكاية حضارة السبعة آلاف سنة . . لقد قال أحدهم ذلك مرة ثم سار الجميع وراءه ! هذا خطأ . . لأن حضارة مصر عمرها عشرات الألوف من السنين . . بدليل أنه فى قاعة العصر الحجرى بالمتحف نجد إنجازات الفنون وأعمالاً بالغة الروعة . . وتوجد آثار عمرها خمسة عشر ألف وعشرون ألف سنة . . ومعنى ذلك أنه سبقها تحضير عشرة آلاف سنة أخرى . لكى تصل إلى هذا الكمال . . فحكاية السبعة آلاف سنة هذه مجرد التاريخ المكتوب . .

لقد كانت مصر أول بلد تتخطى مرحلة الصيد إلى مرحلة الرعى التى تخطتها بسرعة ودخلت مرحلة الزراعة . . والزراعة باب طويل من أبواب الحضارة . . لأن مصر زرعت فصنعت ، وزرعت فلونت ، وزرعت فآمنت، ورسمت وغنت وشعرت وعملت الكثير . . لذلك فإننى أعتبر أن حكاية السبعة آلاف سنة هذه فيها غبن شديد لمصر . .

أما ما أختلف فيه معك بعد هذه النقطة فهو قولك إن التاريخ فيه السلبيات والإيجابيات .

● **أقصد أن التراث ليس كله إيجابيات . . ففى بعض عصور**

الضعف توجد إضافات سلبية للتراث . . والسؤال كان ماذا نأخذ وماذا نترك . . أى ماذا نتخير من تراثنا للغد ؟

ـ المسألة ليست بهذه البساطة . . يجب إعادة دراسة التاريخ دراسة تفلسف الحدث ولاتكتفى بسرده . . لأن سرد الأحداث يحول التاريخ إلى حدوتة . . بينما التاريخ أعلى من هذا بكثير . . وماذا تعنى فلسفة الحدث؟ مثلاً اليابان أخذت تصريحاً منذ فترة قريبة أن تحضر إلى منطقة الهرم وتبنى هرماً . . وحشدت كل الوسائل العلمية وتكنولوجيا العصر . . فكانت النتيجة انها بنت هرماً قميئاً ، خجلت منه ، فهدمته وانصرفت !

هذا الأمر لا أمر عليه بسهولة . . فهذا الشموخ الشامخ للهرم . . كيف تم ؟ بأبسط الوسائل . . هنا فلسفة الحدث . . إن مصر أعطت هذه الإنجازات الرائعة والمبدعة بأبسط الوسائل . .

هنا الوقفة ، وهنا الرد على الذى يقول «أنا فى إيدى إيه؟» . . أو «أنا حاعمل إيه؟» . . أريد تكنولوجيا مثل التى فى أوروبا لكى أعمل مثل الذى فى أوروبا !؟أبداً مصر بأبسط الوسائل عملت بالفعل . . هذا مؤشر هام يهم مصر المعاصرة الآن . . إن المسألة ليست تكنولوجيا فقط . . إنما المهم الإرادة والإيمان . .

●●● روح مصر :

ـ وسأروى لك حكاية بسيطة . . «الذهبى» فى «العبر» يحكى أن الإفرنج حاصروا دمياط عام ٦١٦ هـ ووقعت معارك شديدة . . وعام

٦٢٨ هـ حدث فيضان شديدة وعام ٦٢٩ هـ حدث غلاء شديد ، وعام ٦٤٢ هـ حدث وباء شديد . . وعام ٦٤٨ هـ حدث غلاء شديد . . ! ثم بعد كل هذا فى عام ٦٥٨ هـ خاضت مصر معركة عين جالوت ضد التتار وانتصرت ، وانتصرت بانتصارها المنطقة كلها . . فمصر هى التى وقفت فى وجههم بعد أن اكتسحوا كل المنطقة وهزوا عرش الخلافة فى بغداد وألقوا كتب بغداد فى النهر ووطأوها بسنابك خيلهم . . وبعد كل هذا مصر وقفت وأنقذت الخلافة والتراث والحضارة . . وبهذا لم يكن انتصارها انتصاراً فى معركة ، وإنما كان نصراً للتاريخ والتراث والحضارة والقيم . .

وفى نفس الوقت بنت مصر الجسور والقلاع والمساجد فيها وفى الشام وجددت الجامع الأزهر والمسجد الأموى . . وفى عام ٦٨٢ هـ بنت البيمارستان . . كل هذا بنته وسط الحروب والأوبئة والمجاعات والأمراض . . بنت ورفعت المساجد التى ترتفع مآذنها وكأنها طموح مشتاق يرتاد آفاقاً علوية . . فنلاحظ أن المئذنة فى العصر الصليبى تطلع من المثمن للمربع للمستقيم . . يعنى فيها نوع من «المجاهدة» يعبر عنها الفنان التشكيلى . . هنا فلسفة الحدث . . أنه رغم كل هذه المحن إلا أن قومنا فى أنفسهم من الإيمان العميق ما يجعل من هذا الإيمان مرفأ ترسو عليه أقدامهم . . معنى ذلك أن الفحمة السوداء تتوهج وينصهر الجمر الصلب إلى حجر كريم . . لأننى حينما آخذ الحجر من الجبل فأبنى به مسجداً أو مدرسة فإننى أحوله إلى حجر كريم ! معنى كل ذلك أن مصر

تستعلى على المحنة وتقهر الصعب . . وأن مصر فى تاريخها لم تعرف حائط المبكى . . لكنها كانت عظيمة فى آلامها وكبريائها . . هذه هى روح مصر . . وهذه فلسفة الحدث . . وليس مجرد أن صلاح الدين عمل أو محمد على أو خوفو . . نعم عملوا لكن نحن عملنا . . نحن الفاعل الحقيقى .

●●● مطلوب إعادة كتابة التاريخ :

- إننى أريد إعادة كتابة تاريخنا . . كغاية سرداً . . المهم فلسفة الحدث نفسه لأنها مؤشر للأجيال . . لأنها تعطيها الثقة . . لكن إذا كان واحد هو الذى يعمل كل شىء، فسنظل نعتمد على هذا الواحد . . وهذا هو حكم الفرد . . !

●●● فجر الضمير :

● لقد ظل التدين العميق أحد المقومات الأصيلة لشعب مصر منذ آلاف السنين . . فما هو واقع التدين فى مصر الآن فى رأيك ؟ وكيف نحتفظ به صفة إيجابية فى الإنسان المصرى المعاصر . . فى معاملاته وحياته اليومية ؟

- إنك تشير إلى حاجة معينة . . ولكنك تغفلها ! لكنى فاهمة ما الذى تريد أن تقوله . . ويبدو أننا هنا سنتفق سوياً بعض الشىء بعد أن اختلفنا !

لاشك أن الشعب المصرى عميق التدين والإيمان بالله . . لأن

حضارته ـ حتى قبل الأديان المنزلة ـ حضارة دينية . . يكفى أنه فى فجر الإنسانية عرف الحق والعدل والخير والضمير . . ومادام الضمير موجوداً فهو أقوىٰ حتى من القوانين . . لأن القانون معناه أن هناك عساكر . . إذا ما اختفى أو تحرك العسكرى يستطيع من يريد أن يخالف القانون أن يفعل ما يشاء . . لكن . . حينما يصبح هذا العسكرى داخليًا . . ممثلاً فى الضمير . . فهو رقيب وحسيب. مصر عرفت الضمير . . عرفت الثواب والعقاب . . الجنة والنار . . فعرفت التجويد فى العمل . . لأنه يوجد ضمير فى الأولى وجزاء فى الآخرة . . فحلمت بالخلود . . حضارتها نوع من الحلم بالخلود والبعث .

لقد جاءت المسيحية من بيت لحم فى فلسطين حيث مولد السيد المسيح عليه السلام ، والإسلام جاء من الحجاز حيث مولد الرسول ﷺ . لكن لا فلسطين ولا الحجاز ولا أى بلد إسلامى أو مسيحى وقف وراء المسيحية ثم الإسلام كما وقفت مصر . . لأنها بطبيعتها متدينة . . «ويعرف الفضل ذووه» . . لقد التقت بها الأديان لأنها وصلت بالفطرة السليمة وبالدفع الحضارى معاً إلى قيم جاءت الأديان فعززتها . .

أما النقطة الثانية فهى : كيف نحتفظ بهذا التدين صفة إيجابية ؟ وهذا معناه إنه يمكن أن تكون للتدين صفة سلبية . . وهذه أيضاً أوافقك عليها . . لأنه لعواملَ شتى يوجد إيمان عميق بالدين فى مصر ، وفى الوقت نفسه يمكن أن يكون تديناً مظهرياً فى جانب آخر . . لأسباب كثيرة . .

●●● مصر .. والتطرف :

ـ أولاً . . بسبب التشدد المبالغ فيه لدى البعض . . والرسول ﷺ يقول : «لايشاد الدين أحد إلا غلبه» «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» . . فالدين جوهر له مظهر . . وعظمة الإسلام فى اليسر والسماحة . . وحينما قال الرسول لسائله عن الحرام والحلال «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك» فهذا احترام للعقل والإرادة البشرية وثقة بالإنسان . . وعمر بن الخطاب ذات مرة ضرب أحدهم بعصاه أثناء الصلاة وقال له «ارفع رأسك إن التقوى فى الصدر » . .

فالدين ليس مظهراً . . وأخشى ما أخشاه أن يكون أعداء الإسلام وراء حركة تزمت المتزمتين . . لأنهم يعرفون أن الإسلام قوة كبرى ومصر من ورائه قوة على قوة ، فهم يريدون أن يفتتوا هذه القوة بأن يشغلوها بالشكليات التى يتوه فى جدلها الناس بين التفريعات . .

مرة كان الشيخ محمد عبده فى المنيا . . فسأل الواعظ : كيف الحال ؟ فقال له الواعظ . . لقد غلبت من الناس . . أفهمهم أصول الوضوء ووجوب غسل الوجه من منبت الشعر إلى أسفل الذقن ومن شحمة الأذن اليمنى إلى اليسرى فلا يلتزمون . . وأتعبونى . . فقال له الإمام محمد عبده «يا سيدى كل واحد يعرف وجهه من غير مساح»! إذن الأعمال بالنيات . . ماذا يحدث لو لم ألمس منبت الشعر فى الرأس ؟ المهم أنى نظفت وجهى وجوارحى الظاهرة المعرضة للتراب . . ثم إن الوضوء

وضاءة وجه قبل أن يكون غسيلاً ! والصلاة صلة بين الله والإنسان . .

وإننى أعتب على أهل الدين عدم توصيل هذه المفاهيم للناس . . فليست التقوى أن أتعصب لدينى ضد الآخرين . . وكل الأديان تلتقى على الخير . . والدين ليس مسجداً أو كنيسة . . إنما لحظة خلوصى بينى وبين الله . . أنا لو عندى ما يبنى مسجداً ـ صدقنى ـ لن ابنى المسجد . . وإنما سأبنى مستشفى أو مدرسة . . لأن تخفيف آهة مريض أو محو شقاء أمى يمحو أميته أقرب إلى الله فى اعتقادى من بناء المعبد ! ذلك أن الإنسان يستطيع أن يصلى فى أى مكان . . فالله هو خالقى . . ويمكننى أن أرفع صلاتى إليه فى أى مكان . .

● ومما فضل به الإسلام أن الأرض جعلت له مسجداً وطهوراً ؟

ـ نعم . . ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام أعطانا مؤشراً . . فقد كان يجعل فدية الأسير تعليم عشرة صبيان . . هذه قيمة احترام العلم . . وهذه هى قيم الدين التى تصنع جوهره . . لا مجرد الشكليات .

●●● عمارة العصر والشخصية الحضارية :

● أنتقل بكِ إلى اهتمام آخر من اهتماماتِك . . وأسألكِ عن رؤيتك لعمارة العصر فى مصر الآن . . بعد بواكى ومشربيات القرون الماضية . . وإلى أين وصل عشق الخلود الذى اشتهرت به مصر ؟

ـ يمكن أن أقول إنه ليست لدينا عمارة الآن . . وإنما عشوائية . .

معمارية . . إن صح التعبير . . لأنى لا أفهم كيف تقام فى بلاد الشمس المشرقة عمارات الحديد والألمونيوم . . تزيد الحرارة . . ؟! . .

ثم إنى أعتقد أن هذا مقصود لكى يقوم الناس باستيراد أجهزة التكييف والألمونيوم والزجاج لإقامة واجهات زجاجية أو من الألمونيوم ! ثم أعمل ناطحات سحاب لأستورد مصاعد كهربائية . . ثم أستورد خبراء لكل هذا ! ! يحصلون على مرتبات فلكية فضلاً عن أنى أكون تحت رحمتهم . .

ثم إن لنا طرازاً فى البناء . . هو الطراز الإسلامى . . ومن العجيب أنك لو زرت المتحف المصرى ستجد أن طرازه هو طراز البيت المصرى . . ستجد القباب . . لأن مصر عرفت القبة منذ الأسرة الثالثة . . والقباب فى بلد الشمس تساعد على تكسر الأشعة ، فلا تكون حامية مسلطة على السقف المسطح . . والبناء باللبن يساعد على ترطيب البيت . . والفتحات العالية لها حكمة فى توزيع الهواء ودورته . . فلماذا أترك ما يناسبنى وأخذ بطرز معمارية من خارج بيئتى ؟ هى طرز لبلاد لا ترى الشمس أبدًا . . لذلك يصممون الواجهات الزجاجية للحصول على ضوء الشمس . .

ومن الغريب أن أمريكا بدأت تأخذ نظمنا الأصلية فى العمارة . . وبدأت فى عمل حديقة داخلية مثلاً . . وبدأت تأخذ رأى كبار معمارييننا مثل المهندس حسن فتحى ، فى الوقت الذى نهجر نحن فيه الأصول والجذور لكى نقلدهم !

●●● التغريب بين الاختيار والانبهار :

ـ أعتقد أن هذه العملية عملية تغيير جلد . . عملية تغريب محسوبة . . لأنى حينما أسكن فى عمارة غيرى وألبس نسيج غيرى . . وآكل خبز غيرى . . وأشاهد برامج تلفزيون غيرى . . وأدرس مناهج تعليم غيرى . . فهذه عملية تزلزل الكيان . . وتفقد الثقة فى النفس . . إذ ليس لى فى الأمر شىء . . أحس أنى جالسة أنتظر البرنامج والعمارة والرغيف . . وتبقى عقدة الرجل الأبيض والرغيف الأبيض . . والمشروبات الغازية . . مع أن عندى الكركديه والبرتقال والليمون . .

لقد كنا نصدر القمح فأصبحت أستورده لكى أكون حبيسة الإرادة المشلولة المرهونة . . إن عملية التغريب والتحديث بلا وعى عملية خطيرة . . أنا لا أعادى حضارة من الحضارات . . أبدًا . . ولكن من باب أولى لا أعادى حضارتى . . لا أجافيها ولا أعطيها ظهرى . . أريد أن يكون موقفى موقف الاختيار لا الانبهار . . أختار ما يناسبنى . . كيف يكون عندى القطن وألبس النايلون ؟ لقد أكدت البحوث العلمية أنه يسبب السرطان أحيانًا لأنه ليس به مسام . . أيضًا ما يسمى بالتيفال . . نفس الشىء . .

لقد كسب غاندى معركة الهند بالاكتفاء الذاتى . . فهو الإرادة التى تجعلنى أملك الكلمة والقرار . . وبدون هذا كل شىء يضيع .

حينما نسافر للخارج مثلاً . . نجد أن البضائع التى نتهافت عليها

هنا تباع هناك بأرخص الأسعار . . بينما القطن المصرى يغالى فى ثمنه . . لاحظت هذا فى أمريكا . . أعلى أسعار هى أسعار الملابس القطنية . . وحينما يمدحوه يقولون Egyptian Cotton .

وحتى فى مواد التجميل . . أكبر إعلان عن تظليل العيون يقول لك It gives you an Egyptian eye أى « إنها تعطيك عينًا مصرية » يا سلام! ثم نلهث نحن وراء كل شىء غربى . . لماذا . . ؟ وما هو الغرب؟ وكيف بدأت نهضته أساسًا ؟ لقد بدأت من الحضارة الإسلامية فى الأندلس . . والطبيعى أنه بدأ بالتقليد ، ثم بدأ بسرعة فى الدراسة والإضافة وإقامة حضارة خاصة به . . فلماذا لا نفعل المثل ؟ انظر إلى اليابان تجدها حريصة على الأصل . . الموتور أصل الصناعة . . يعنى لا تستورد الموتور وتقوم بعملية تجميع . . لا . . بل تصنع الموتور بنفسها . . هذا هو التأصيل . .

فأنا لا أريد لمصر أن تكون تابعة . . لأن التبعية إذلال . . أريدها رائدة . . مشاركة . . مساهمة فى العلم والفن وكل شىء . . مثلاً تجدنا نقلد فن اللا معقول . . كيف وهو نوع من الاحتجاج على حضارتهم ؟! ونقلدهم لو أطالوا شعورهم مثل جماعة الهيبيز . . وهذا أيضًا نوع من احتجاجهم على مجتمعهم . . السيريالية مثل آخر . . وهكذا . . لماذا نقلد كل هذا . . لماذا ؟!

● أستطيع أن أقول : إن بيت د . نعمات الذى يجرى فيه هذا الحوار نموذج للهوية . . فيه الطابع المصرى العربى الإسلامى . .

ـ مصر الفرعونية . . مصر المسيحية . . مصر الإسلامية . . جزء من كيانى . . ولا يمكننى الاستغناء عن ثانية من عمر مصر أو أن أهدرها . . كل تاريخها بمعاليه ومآسيه معًا فى وجدانى . . وإذا كنت أجمع بين ركن إسلامى وركن فرعونى فى بيتى ، فأقصد إن أقول أن الإثنين ـ بفضلي أنا . . أو أنا صاحبتهم . . أنا أستوعبهم وهم يستوعبونى . . فمصر لا ترتدى من عصر معين . . فهى كل شىء . . هى قبل الزمان بزمان . . هذه هى مصر !

●●● الإستمرارية الحضارية :

ـ إن مصر هى التى صنعت معنى المعاصرة . . أى استمرار الماضى عبر الحاضر فى استشرافه نحو المستقبل . . فالانسان المصرى حينما اعتنق الإسلام وأراد أن يبنى فقد بنى بناءً وفنًا مختلفا عما صنعه فى العصر الفرعونى ولكنه لا ينقطع عنه .

●●● القبة هرم .. والمئذنة مسلة :

ـ فمثلاً أنا أعتبر القبة الإسلامية العظيمة هرمًا . . لأن الخط فى يد الفنان المصرى استدار بعد سلاسة وسماحة الإسلام . . كل مئذنة . . وكل برج فى مصر داخله مسلة . . هذا الخط الصاعد الملىء بالشوق إلى فوق . . الذى يحلم بالسماء . . كل العمارة المصرية منذ القدم تأخذ الخط الصاعد مثل نخل النيل . . تتمثل فى الأول مسلة . . وفى الثانى برج كنيسة . . ثم مئذنة مسجد . . ثم برج القاهرة ! لو وقفت على الشاطىء عند فندق

هيلتون ونظرت . . ستجد المسلة والبرج ومئذنة المسجد وبرج الكنيسة . . كلهم واحد ! يختلفون فى التفاصيل من الخارج فقط . . ثم تجد نخلة النيل . . التى هى الأساس . . فحضارتنا هى حضارة النبات . . حتى أننا دائماً نقول . . عمود بردى . . أو عمود لوتس . . يعنى داخل كل مئذنة مسلة . . شىء له جذور . . كما نمدح إنساناً فنقول : إنه ابن أصل . . !

وأنا لا أطلب أن نقلد الماضى . . وإلا فأين دورى وأين عطائى . . وأين ضريبة الوطن ؟ . . ولكن أنا أقول يجب أن يكون الماضى كنزاً فى داخلى أستمد منه وأطوره وأظل فى حوار معه . . حوار خلاق مضىء .

●●● بين البلدى والآلافرانكا ! :

● ما تفسير عبارتك الشهيرة « إن حضارة العصر تصفق لفك الخط الفنى » ؟!

ـ إن العلم لا وطن له . . أما الفن فهو ابن بيئته . . ويلاحظ أنه فى عصور الضعف تهتز الهوية . . فمثلاً فى القرنين ١٦ و ١٧ كنا نمدح الشىء بقولنا ده عثمانلى ! نسبة إلى آل عثمان . . وبعد الاحتلال البريطانى أو الغربى كنا نقول « آلافرانكا » حينما نمدح الشىء . . أما الشىء الذى لا يعجبنا فنقول عنه « بلدى » ! تصور كيف انعكست الآية ؟! . . المفروض إن كلمة بلدى تقال عن الروائع الغوالى . .

● ألا يجوز أن السبب أن الإنتاج المصرى فى فترات الضعف لم يكن يضاهى الإنتاج الأجنبى ؟

ـ والله أبدًا ! إن مصر فيها شىء عجيب . . لقد كانت دائمًا تواجه الغزو العسكرى بغزو فنى حضارى . . وطبعًا هو الأبقى . . إن مصر لؤلؤ البحار . . دائمًا تصوغ دموعها أعمالاً عظيمة . . مثلاً أيام الرومان . . تعالى الغزاة على مصر فقاطعتهم . . بل تهكمت عليهم لدرجة أن القضاة الرومانيين حرموا على المحامين المصريين الترافع فى محكمة الإسكندرية . . لأنهم كانوا يسخرون من القضاة الرومان ويهزون هيبتهم . . وحينما أحس الرومان أن مصر قاطعتهم بدأوا فى التودد إليها . . بل وعبدوا إيزيس فى مصر ثم فى روما نفسها ، وانتصرت مصر حضاريًّا . .

وكانت مصر، من دون بلاد الإمبراطورية كلها ، الإقامة فيها بإذن من القيصر ، ولمدة محدودة . . وهذا اعتراف بأن مصر قوة لمن يملكها . . بابا الكنيسة المصرية كان يقول . . ماذا يعنينى من الإمبراطور . . أنا هنا الإمبراطور . . وكانت الكنائس الأخرى تتبع كنيسة مصر . . فالمسألة ليست مسألة عضلات . . يعنى السلطان سليم بمقاييس العضلات كسب المعركة فى مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم فى الريدانية سنة ١٥١٧ واستولى على مصر . . لكن هذا السليم وقف فاغرًا فاه مبهورًا محدقًا فى روائع مصر الفنية . . ما معنى هذا؟ معناه أنه لم ير مثل ذلك من قبل . . وكانت النتيجة أنه جمع كل هذه الروائع . . بل جمع الصناع أنفسهم لكى يعلموا العثمانيين فى القسطنطينية ! هذا هو الفن الذى نطلبه لمصر . .

●●● سلطان العارفين !

ـ هذا الشعب خلاق صناع اليد والفكر . . ودائمًا يجد نفسه فى الفن

لدرجة أن عمر مكرم والشيخ الشرقاوى كانا يستطيعان تنصيب واحد منهم واليًا على مصر . . ولكنهما نصبا محمد على . . لماذا ؟ لأن المصرى يعتقد أن الحكم ـ أو ما يسميه هو مسألة الضبط والربط ـ مسألة تحتاج لعضلات . . تتطلب شخصًا يحارب ويحمى الحدود . . إنما الشعب المصرى شعب فنان . . مثل أى شخص فنان عظيم . . يحب موهبته ويحب فنه . . تقول له تعالى أنصبك ملكًا أو وزيرًا لا يرضى . . لأن عنده الأغلى . . عنده عطاء السماء . . الشيخ الشرقاوى يرى نفسه أفضل من الامبراطور . . هو رجل الدين . . السلطة الروحية . . هو المرفأ لهذا البلد .

الشيخ الإمبابى رفض أن يذهب إلى كرومر وهو من هو فى عنجهيته وطغيانه ، فما كان من كرومر إلا أنه توهج شوقًا لرؤية هذا الذى رفض زيارته ، فزاره هو فى قريته ، فلما دخل عليه مجلسه لم يقف ، بل استمر فى جلسته . . مصر كانت تسمى رجل الدين المخلص (سلطان العارفين) وهى رد على سلطان الحاكمية . . هذه هى مصر ، وهذا هو علم وفن مصر . . أما فى عصور الانحطاط فلا نستغرب التصفيق لفك الخط الفنى . . أى عملية التسطيح واختلال القيم والتخليط .

●●● محمودكو وعليشكو !

● هذا التخليط الذى يمكن أن نشاهده فى كل شىء . . حتى فى أسماء الناس والمحلات والشركات ؟

ـ نعم . . إن القاهرة هى تقريبًا العاصمة الوحيدة التى تعيش غريبة على أرضها . . نمشى فى الشارع نجد الأسماء الأجنبية . . طلعت حرب حينما أراد إقامة نهضة حقيقية سنة ١٩٣٠ قام بتمصير كل شىء . . شركة مصر لكذا وكذا . . واقتدى به الآخرون . . حتى الأجانب لم يقدروا على نطق الأسماء العربية السليمة فسموا شركاتهم بإيزيس وحورس ولوتس . . أى الأسماء المصرية القديمة . . المهم إنها مصرية . .

لكن حينما جاء الانفتاح . . وأنا لست ضده . . أنا أرحب بانفتاح يعلمنى شيئًا جديدًا : . آلة جديدة . . مصنع جديد . . إضافة جديدة . . لكن انفتاح يجعلنى سوقًا استهلاكيًا لكى يسحب ميزانية البلد فتكون النتيجة مزيدًا من التغريب فى كل شىء حتى الأسماء . . شركات محمودكو وعليشكو . . هذا غير معقول . . عندنا قانون جاهز منذ عام ١٩٤٨ يمنع هذا . . فهل نتقدم أم نتأخر ؟!

●●● الكتابة المجسدة والكتابة المجودة :

● دعينى أصارحك يا دكتورة أننى أثناء متابعتى لمعركة هضبة الأهرام التى انتصرت أنت فيها . . كنت أفكر فى سؤال . . أنت سيدة متزوجة وأم، وأستاذة فى الجامعة ، وكاتبة . . وأستاذ زائر فى جامعات العالم . . وعضو مؤتمرات شتى . . فكيف ألفت ثلاثين كتابًا ودخلت مثل هذه المعارك . . ؟!

ـ أولاً بتوفيق ربنا ثم بالنظام . . لأن النظام يعطى ضعف الوقت

تمامًا . . ثم بإسقاط الفضول . . بحيث لا يضيع وقتى فيما لا يعنينى . . كما أننى أعتبر الكتابة بالنسبة لى ثروة بلا حدود وهواية يومية . . وهى عندى نوعان : كتابة مجسدة وكتابة مجودة . . الكتابة المجسدة هى التى أكتبها أنا على الورق . . أما الكتابة المجودة فهى التى أقرأها أنا للآخرين !

●●● خاتمـة :

● كيف تصفين هذا العصر فى سطر واحد ؟

ـ عصر الخلاص فى العودة إلى المنبع . . الدين !

obeikandl.com

obeikandl.com